https://farid.ps/articles/banners_and_soils_drenched_in_blood/ar.html

الأعلام والتربة المغطاة بالدماء

قال بلزاك: **"وراء كل ثروة عظيمة جريمة."** الدول ليست استثناءً. أعلامها ترفرف عاليًا، لكن تحتها التربة مشبعة بدماء الذين تم تهجيرهم، أو غزوهم، أو دمروا. بُنيت الولايات المتحدة على قبور جماعية للسكان الأصليين، أراضيهم سُرقت، أممهم تحطمت، وتربتهم تصرخ تحت نجوم وخطوط العلم. بُنيت إسرائيل على **النكبة** - الكارثة عام 1948، عندما طُرد أكثر من 700,000 فلسطيني من ديارهم، دُمرت قراهم، واستولت راية أخرى على تربتهم.

لم يكن هذا حادثًا. كان تصميمًا. الإرغون وليحي، مجموعتان شبه عسكريتين صهيونيتين، شنتا الإرهاب ضد الفلسطينيين والبريطانيين. مناحيم بيغن - الذي أصبح لاحقًا رئيسًا للوزراء - كان آنذاك الإرهابي الأكثر طلبًا في فلسطين، مع مكافأة قدرها 10,000 جنيه إسترليني من MI5. تحت قيادته، نفذت الإرغون تفجير فندق الملك داوود عام 1946، مما أسفر عن مقتل 91 شخصًا، وشاركت في مذبحة دير ياسين عام 1948، حيث ذُبح أكثر من 100 مدني. دمرت القوات الصهيونية أكثر من 400 قرية فلسطينية خلال الحرب. هذه كانت التربة التي ترسخت فيها إسرائيل.

ولم تنته الجريمة مع التأسيس - بل تصلبت إلى سياسة. الفلسطينيون الناجون وُضعوا تحت الحكم العسكري. لم يُسمح للمنفيين بالعودة أبدًا. قُطعت الضفة الغربية إلى أجزاء بالمستوطنات والجدران. أُغلق غزة وخُنقت، وعوقب شعبها بمجرد وجودهم. منظمات حقوق الإنسان - العفو الدولية، هيومن رايتس ووتش، بتسيلم - سمّت النظام بما هو عليه: الفصل العنصري.

الآن، أصبحت غزة مقبرة لتظاهر إسرائيل الأخلاقي. بحلول أغسطس 2025، سجلت وزارة الصحة في غزة **أكثر من 62,000 قتيل مؤكد**، تم انتشال جثثهم وتسجيل أسمائهم. ما يقرب من نصفهم أطفال. لكن هذه ليست سوى الطبقة المرئية من الكارثة. عشرات الآلاف ما زالوا مدفونين تحت أنقاض الأحياء المدمرة، أسماؤهم غير مسجلة. الخسائر الحقيقية هي بالتأكيد ثلاث إلى خمس مرات أعلى، حقيقة لن تتضح إلا عندما يُسمح للصحفيين الدوليين ومحققي الأمم المتحدة وخبراء الطب الشرعي بدخول غزة. إسرائيل تخفي جرائمها كما فعل النازيون ذات يوم - لكن كما يظهر التاريخ، لا يمكن إخفاء الفظائع إلى الأبد. كما كُشف النطاق الكامل للمحرقة عندما دخلت قوات الحلفاء معسكرات الاعتقال، كذلك ستشهد قبور غزة المخفية يومًا ما على حجم الجريمة.

الرموز لا تستطيع البقاء بعد الفظائع

لقد رأينا هذا من قبل. كانت الصليب المعقوف رمزًا للرفاهية والحظ الجيد في الهند والصين وعبر العالم القديم. زيّن المعابد والفنون المقدسة لآلاف السنين. لكن النازيين استولوا عليه، ورفعوه فوق معسكرات الموت، وغطوه بالإبادة الجماعية. اليوم، لا يمكن استعادة الصليب المعقوف في الغرب. معناه الأصلي مدفون تحت رماد أوشفيتز.

العلم الإسرائيلي يواجه الآن المصير نفسه. كان يُرفع كراية للملجأ لشعب مضطهد، لكنه حمل فوق المذابح والحصار وجدران الفصل العنصري. بالنسبة للعالم، لم يعد يمثل البقاء - بل يمثل الهيمنة والموت. خطوطه، التي كانت تهدف إلى استحضار الطاليت، ملطخة بدماء أطفال غزة. نجمته، التي كانت رمزًا للإيمان، استُخدمت كعلامة للقمع.

ومثل الصليب المعقوف، فهو لا يمكن استرداده. تخلت جنوب إفريقيا عن علمها في عصر الفصل العنصري لأنه كان لا ينفصل عن الطغيان العنصري. يُعترف الآن بعلم الكونفدرالية في الولايات المتحدة كرمز للعبودية والتمرد ضد المساواة. كذلك سيعامل التاريخ العلم الإسرائيلي: ليس كرمز للأمل، بل كراية ارتكبت تحتها الفظائع.

الوصمة التي لا تُمحى

هذه الوصمة لا تخص إسرائيل وحدها. إنها تخص ضمير الإنسانية. العالم الذي سمح لغزة أن تجوع وتُقصف وتُدفن سيحمل هذا العار. كما تبقى جرائم النازية إدانة دائمة للعالم الذي نظر بعيدًا لفترة طويلة، كذلك ستظل غزة تطارد ذاكرتنا الجماعية.

لا علم، ولا نشيد، ولا خطاب مدروس بعناية يمكن أن يغسل هذا الدم. سيظل التاريخ يتذكر. وستظل المقاومة ليست فقط حقًا، بل - كما علمنا بريخت - واجبًا.

كما يحذر الكتاب المقدس: **"ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك يصرخ إليّ من الأرض."** التربة تتذكر. الأعلام تتذكر. والحساب سيأتي.

المراجع

- موريس، بيني. **ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين مُعاد النظر.** مطبعة جامعة كامبريدج، 2004.
- خليدي، وليد. **كل ما تبقى: القرى الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل وأُفرغت من سكانها عام 1948.** معهد الدراسات الفلسطينية، 1992.
- سيغف، توم. **1949: الإسرائيليون الأوائل.** فري برس، 1986.
- أرشيف MI5، الأرشيف الوطني البريطاني: مكافأة على مناحيم بيغن (1944–1945).
- بابي، إيلان. **التطهير العرقي لفلسطين.** منشورات أونيوورلد، 2006.
- العفو الدولية. **فصل إسرائيل العنصري ضد الفلسطينيين: نظام قاسٍ من الهيمنة وجريمة ضد الإنسانية.** 2022.
- هيومن رايتس ووتش. **عتبة عُبرت: السلطات الإسرائيلية وجرائم الفصل العنصري والاضطهاد.** 2021.
- بتسيلم. **نظام التفوق اليهودي من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط: هذا هو الفصل العنصري.** 2021.
- مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (UN OCHA). **تقارير أزمة غزة،** بيانات الضحايا 2023–2025.
- هيلر، ستيفن. **الصليب المعقوف: رمز لا يمكن استرداده؟** مطبعة أولوورث، 2000.